ويختم حسان مرثيّته بتمنّي لقاء الرّسول في الجنّة ، وهو غاية ما تصبو إليه نفسُه :

وليس هَوايَ نازِعاً عَنْ ثنائِهِ لَعَلّي به في جَنّةِ الخُلْدِ أخْلُدُ
مَعَ المصطفَى أرْجُو بذاكَ جِوارَهُ وفي نَيْل ذاكَ اليَوْم أسْعَى وأجْهَدُ

وقد درس الدكتور زكي مبارك هذه القصيدة فرآها لينة من حيث النّسج ، مما جعله يتشكّك في صحّة نسبتها ، كما أنه رآها ضعيفة من الوجهة الشّعريّة .[1] على أن رأينا يختلف حولها عمّا أعرب عنه أديبنا وباحثنا الكبير رحمه الله ؛ فإننا نراها من خير ما رُثي به الرّسول ﷺ ، سواءً من حيث حرارة العاطفة أو جودة الصّياغة أو التّشبّع بالمعاني الإسلاميّة . وإذا صحّ أن الوضع قد لحق بعض أبياتها ، فإننا نرى أن جُلّها صحيح النّسبة لحسّان . على أن الدكتور زكي مبارك ربّما كان على حقّ حينما رأى أن هذه المرثيّة لم تُقل عقب وفاة الرّسول ﷺ ، وإنّما قيلت بعد موته بزمان ، وأن هذا قد يفسّر ما نلاحظه فيها من نزعةٍ شبه صوفيّة .[2] ونضيف إلى ذلك أنها اشتملت من وصف خلق الرّسول ومناقبه على ما لم تشتمله مدائحُه التي عرضنا لها من قبلُ ، كما أن فيها حقا من الرّقّة واللّين ما لم نره في شِعر حسّان السّابق من عنفٍ وشِدّةٍ ، وتمثّل لكثير من القيم الجاهليّة ، ولا سيّما في نقائضه وأهاجيه لخصوم الدّعوة الإسلاميّة . غير أن ذلك يفسره ما تقتضيه طبيعة الرّثاء نفسُها من حزن وانكسار ، ولعلّ هذه المرثيّة هي أقرب شعر معاصري الرّسول ﷺ إلى فنّ المديح النّبويّ الذي ازدهر بعد ذلك بقرون ؛ ولهذا فقد اهتمّ شُعراءُ المدائح النّبويّة بمعارضتها وتخميسها فيما بعد .

---

(١) المدائح النبوية ، ص ٤٤–٥٠ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٥٠ .